الأصولية الإسلامية بين الفكر التكفيري والعنف المقدس

أ.م.د. عبد الرزاق رحيم صلال

جامعة البصرة / كلية الآداب

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه أحمد الأمين وعلى آله وصحبه الميامين الذين أكرمهم الله طهرا وتطهيرا ، وبعد ، فلم تعد ذهنية العنف التكفيري الكامنة وراء الإرهاب حكرا على العناصر التكفيرية التي تؤمن بممارسات تتسم كليا بالعنف والتطرف . بل أمست في اتساعها تشمل مساحات واسعة في دول عربية وإسلامية عديدة، تعرضت على مدار سنين عديدة إلى عدو يتبنى استراتيجيات تعتمد على عمليات غسيل للأدمغة ، تحت وطأة ضغوط العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتردية على الفرد والمجتمع معا.

ونقصد بالأصولية معناها اللغوي العام، أي الرجوع إلى الأصول. والأصول عند المسلمين هي القرآن الكريم والسنة النبوية، القولية منها أو الفعلية، ناهيك عن باقي الأصول التي هي محل خلاف بين المسلمين. ولكن اجماعهم منصب حول الكتاب والسنة. وعليه فان معظم المسلمين أصوليون يؤمنون بالسلام والحوار والتسامح، ولا يؤمنون بالإرهاب. ولا يمارسون العنف. والأصولية بهذا المعنى ليست مذهبا دينيا في الاسلام كما هو الحال في المسيحية . وأطلق لفظ الأصولية على الحركات التي اتبعت خطاً سياسياً مارست من خلالـــــــــــه العنف والارهاب باسم الاسلام، وليس الاسلام التشريعي أو الشعائري أو الأخلاقي.والباحثون في مجال النظريات التي تبحث ظاهرة الارهاب الأصولي التي أصبحـــــــت ظاهرة عالمية لم تستثن منها أمة أو بلدا أو عرقا إلا وشملته تحت سلطة (المقدس الديني)الذي احتكره الكهنوت السياسي لقرون عديدة ،فذاقت الشعوب من ويلاته الحروب المريرة. وهذا الكهنوت ساهم وبفعالية كبيرة في نشر وتغذية التطرف ، فولد تيارات أصولية عنيفة ، استغلت تردي الوضع العربي والاسلامي لتعلن نفسها وصية شرعية اختارتها السماء منقذا للشعوب المقهورة !

إن ظاهرة التطرف الديني تحديدا بمختلف مظاهرها المذهبية الدينية والفكرية الايدولوجية التي شهدها العالم الاسلامي في عقوده الاخيرة ظهرت بشكل بارز من خلال المظاهرات المعارضة للسلطات الحاكمة . أو عندما وقعت محاولات انقلابية عسكرية، واغتيالات ذات أبعاد سياسية في بدايات سبعينيات القرن الماضي ، وإن سبقتها أحداث مهدت لقيامها، وأسست لظهورها فيما بعد ، مثل حركة الإخوان المسلمين في مصر، وحركة الجهاد والتكفير، والجماعة السلفية للدعوة والقتال في الجزائر، وعصبة الأنصار في لبنان .

فرضية البحث : تقوم الفرضية على اساس وجود اشكالية عقدية وفكرية وسياسية في النهج المتبع في تطبيق شرع الله في التعامل مع الطرف الآخر، المعارض لأصحاب الفكر التكفيري ، وهل للمجتمع الاسلامي موقف من تلك المجاميع التكفيرية مع فارق تباين لوجهات النظر حيالها ؟

أهمية البحث : لقد اخترت موضوعة التطرف الديني وعلاقتها بالمقدس الذي تبنته الجماعات الارهابية لأنها تمثل اليوم الحدث الأبرز الذي يشغل الساحة الدولية . إن الأساس أو الأيدولوجية التي انطلقت منها الأصولية السلفية في تبنيها للإرهاب والعنف المتلحف بغطاء الدين ، وسعة انتشارها ، ومساحة الخراب والتدمير الذي أحدثته ماديا ومعنويا وفكريا أيديولوجيا ، والفرقة التي سببتها بين المسلمين بسبب ما عرضته من أفكار ضالة وهدامة أغوت البعض

بالإيمان بها، كونت في مجملها الحافز الذي يدفع كل الباحثين إلى سبر أغوار هذه التيارات الخطيرة التي تقف وراءها أجندات عالمية ومحلية هدفها تحطيم الإسلام وعقيدته السمحة . ولا يشير لفظ (العنف المقدس) في عنوان البحث إلى وجود تقديس لأي عنف بمختلف صوره في الشريعة الإسلامية ، وإنما ما يقوم به التكفيريون من أعمال عنيفة توصف من لدنهم بالتقديس هو المبرر لنعتنا له بالعنف المقدس .

منهجية البحث :

اعتمد الباحث على المنهج التحليلي الذي يحاول من خلاله استقصاء الحقيقة العلمية الممنهجة التي مثلما تطرح الاشكاليات تطرح الحلول المتوقعة التي تحتمل الصحة والخطأ .

خطة البحث: وابتدأت الحديث في مدخل البحث عن مقاربة إحصائية للفظ الجذر(الجهاد) لما لها من أوجه صلة بأصل فكرة البحث (المجاهدة الحرب ، القتال، والغزو) . ثم عرجت في المبحث الأول إلى معرفة جذور الأصولية الإسلامية المتشددة وعوامل صعودها، منوها إلى طبيعة الفكر الأصولي وتبنيه لنظرية التقديس كمبرر لمشروعية جهاده وحربه للمعارضين له. أما المبحـــــث الثاني فتناولت فيه سمات العوامل التي اتشحت بها ظاهرة التطرف الديني ، في ضوء العوامل الذاتية والموضوعية . وكذلك عبر الأيدولوجية ومراحل تطورها. وختمت الدراسة بجملة نتائج توصلت لها الدراسة .

<u>مدخل تمهيدي</u>

مقاربة إحصائية لألفاظ الجذر(الجهاد)

تؤسس عملية المقاربة الإحصائية للألفاظ ذات الجذر المعني (الجهاد) لمجموعات دلالية متعددة ،بلغت ثمانية عشر لفظا . وقد تكررت في مئة وثماني عشرة آية متوزعة على مجاميع دلالية عدة ، تحمل في مضامينها قيمة تكشف عن المعايير الأسلوبية للنص . وتساعد في بيانه وتفسيره.كما أن الإحصاء له القدرة على فكر التمييز بين السمات والخصائص اللغوية التي يمكن عدها خواص أسلوبية. والسمات التي ترد في النص ورودا عابرا(١)، يمكن إيجازها في مجموعات أربع هي:

المجموعة الدلالية الأولى (ج ،هـ ، د): وألفاظها(جهاد، جاهد، يجاهد ، جاهد ، المجاهدون ، المجاهدين). وورد في بيان مفهومها اللغوي:(المبالغة والطاقة ، يقال: جهد المقل اي قدر ما يحتمله . قال الفراء: الجهد والمشقة(٢). ومعنى بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما)(٤) وقال تعالى(فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا)(٥) .

المجموعة الدلالية الثانية(حرب) الحرب: نقيض السلام. وأصلها الصفة كأنه مقاتلة حرب. ودار الحرب دار المشركين الذين لا صلح بينهم وبين المسلمين(٦) ولفظ الحرب ورد في القرآن الكريم في مواضع عدة، منها: قوله تعالى(حتى

تضع الحرب أوزارها)(٧)أي لا يبقى مشرك(٨)، وقوله تعالى(فإماتثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون)(٩)أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب(١٠)

المجموعة الدلالية الثالثة(ق، ت، ل):وتشمل ألفاظ (قاتل، يقاتل، قاتل، يقاتلون) وأصل مادة القتل يدل على إذلال وإماتة(١١). وورد لفظ القتال في القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعا، منها قوله تعالى (ياأيها النبي حرض المؤمنين على القتال)(١٢) فالتحريض والتحضيض والترغيب والحض والحث بمعنى والفقه أبلغ وأغزرمن الفهم، وقيل حثهم وذمرهم عليه ، ولهذا كان رسول الله(ص) يحرض على القتال عند صفهم، ومواجهة العدو.(١٣)وقال تعالى(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)(١٤) أي كم من نبي قتل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير، وقيل إنما عنى بالقتل النبي وبعض من معه من الربيين دون جميعهم وإنما نفى الوهن والضعف عمن بقي من الربيين ممن لم يقتل(١٥). وقال تعالى(يقاتلون في سبيل الله فيقتلون فيقتلون)(١٦) فمعنى يقاتلون في سبيل الله بيان للغرض الذي من أجله اشتراهم ، و(يقتلون) أي المشركين (ويقتلون) اي يقتلهم المشركون. يعني أن الجنة عوضا عن جهادهم سواء قتلوا أو قتلوا.(١٧) .

المجموعة الدلالية الرابعة(غ،ز،ا):يقال غزا أي طلب شيء، وغزا الشيء غزوا، أراده وطلبه. والغازي: الطالب لذلك، والمغزية: المرأة التي غزا زوجها.٠(١٨). وورد لفظ غزى مرة واحدة في القرآن الكريم، قال تعالى(وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الارض أو كانوا غزا لو كانوا عندنا ما ماتوا)(١٩) فمعنى (أو كانوا غزا) أي كانوا في الغزو(٢٠) . وقيل: أي غزاة محاربين للعدو فقتلوا.(٢١)

المبحث الأول: جذور الأصولية الإسلامية الحديثةالمتشددة وعوامل صعودها

المطلب الأول: نشأة الحركات الأصولية الاسلامية الحديثة وعوامل صعودها.

يكاد يجمع الباحثون الإسلاميون المعاصرون على أن التطرف الديني المتشدد ظهرمع بروز الحركات الأصولية التي اعتمدت في تبنيها لمكوناتها الفكرية الأساسيةعلى الجمود المعارض لكل نمو وتطور. ساعية للعودة إلى الماضي والانتساب إلى التراث والمحافظة، رافعة شعار عدم التسامح مع الآخر المعارض،والانغلاق والتحجر المذهبي المبني على تصلب وكفاح وعناد(٢٢).إن ظاهرة التطرف ظاهرة عالمية لا تقتصرعلى دولة دون أخرى ، فهي قديمةقدم الإنسانية ذاتها.فظهور أي نظام أودين أو مذهب، إلا وكان بين أنصارها متطرفون ومعتدلون. ويربط كتاب إسلاميون ظهور الأصولية المتشددة بالفاشية التي سادت أوربا في العصور المتأخرة، مطالبين بتحديث العالم الإسلامي وفقا لنمط الحياة. آملين من وراء ذلك تدجين الإسلام المتطرف ،ولكن هناك كتاب غربيون يرون أن مثل هذا التحليل يبتعد عن الحقيقة ،لأن طبيعة التهديد الإرهابي إسلامية، ولا تشكل انحرافا كبيرا عن التقاليد الإسلامية ، مستمدين شرعيتهم الأيدولوجيةمما أفرزه الإسلام الكلاسيكي وكذلك الحديث من معطيات تؤشر لأصالة العنف في التأريخ الإسلامي . وأن ما يقصد به الجهاد هو جهاد النفس خلافا للمفهوم المرتبط بالعمل العسكري. فالإسلام شهد منذ ظهوره قتال المرتدين والكفار ولم ينتشر إلا بحد السيف النية والإقصاء.(٢٣).

واستخدم مفهوم التطرف إشارة إلى الخروج عن القيم والقواعد الفكريةوالأساليب السلوكية الشائعة في المجتمع، من خلال تبني قيم مختلفة العزلة والسلبية ، قد يصل الدفاع عنها إلى حد العنف بهدف إحداث تغيير في المجتمع وفرض الرأي بالقوة. وقد فسر التطرف باتخاذ الفرد موقفا متشددا يتسم بالقطيعة في استجابتـــــــــــــه للمواقف الاجتماعية التي تهمه ، والموجودة في بيئته التي يعيش فيها ، وقد يكون التطرف ايجابيا في القبول التام أو سلبيا في اتجاه الرفض التام.(٢٤).إن عملية تتبع نشأة الحركات الأصولية المتشددة عملية متشابكة كونها لا تعتمد على التحليل المجزأ للإلمام بكافة جوانبها المختلفة ،فتلك الجماعات قد ظهرت ضمن إطار التعددية السياسية ، التي كان لها رؤى خاصة حول القضايا الاجتماعية المطروحة على الساحة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية . كما هو الحال في أقدم جماعة اسلامية متشددة ظهرت في عصرنا الحاضر ، وهي جماعة الإخوان المسلمين المصرية(٢٥).

إن ممارسة الحركات الاصولية للإرهاب يتأتى من خلال إسقاط ما تقوم به هذه الحركات على الدين الاسلامي ككل . وهي تستند في استخدامها ضد غير المسلمين ويطلق عليها آيات الجهاد والتي يراها البعض إنها آيات نزلت في مرحلة محددة من التاريخ الاسلامي إبان نشر الدين الاسلامي. (٢٦). ولكن الخطأ الفادح الذي وقعت فيه هذه الحركات المتشددة أنها عممت رؤاها التكفيرية للنظم الحاكمة ، وحملت الشعوب العربيةجزءا كبيرا من المسؤولية الشرعية التي تريد تطبيقها في بيئتنا العربية والإسلامية.

إن فهم دواعي نشأة الحركات الاصولية المرتبطة بالعنف والإرهاب لا يمكن فصله عن إطار البعد التاريخي لها . حيث ان معرفة عملية التطرف لابد أن تركز على الظروف التاريخية والعوامل التي ساعدت على ظهور هذه الظاهرة ، فتلك

الظروف هي التي تشخص حالة مجتمع مر بأزمة معينة، تجعل عمليات الإحياء الديني أو الانبعاث الديني يتحول من مستوياته السوية والعادية إلى مستويات غير سوية حيث التطرف والعنف.(٢٧). كما لا يفهم تطرف الحركات الاصولية إلا بفهم طبيعة أيديولوجياتها وخصائص أفكارها المتطرفة . فهي تفرض على أتباعها طريقة خاصة في الحياةتهدف إلى النقاء الروحي والخلقي، جنبا إلى جنب الإحساس بالهوية والذاتية والتمايز. وهو ما يتقبله المتشدد دون اعتراض إما لفراغ فكري أو لنظرة تشاؤمية، أو لطاعة عمياء لأحد القادة الدينيين.أما أسباب صعود نجم الأصولية المتشددة فتعود إلى جملة أسباب مباشرة وغيرمباشرة، يصعب معها الإحاطة بها،لأنها ذو مشارب معقدة تختلف من بيئةإلى أخرى، ومن ثقافة إلى أخرى، لأن القائمين عليها أصحاب أعراق وأجناس من شتى بقاع الأرض لينشروا الأيديولوجيات المدمرة لكل ما يمت الصلة بالدين القويم والإنسانية التي تحترم كيان الفرد قبل المجتمـــــع ، وأهم الأسباب هي:

١. إن السياق السياسي العام لايمكن عزله عن المشهد الدموي السائد في المنطقة اقليميا. فعنف الأصوليين وسلوكهم الحادا ليس نشازاً بل هو جزء من العنف البنيوي الراهن الذي يجتاح العديد من المجتمعات العربية(٢٨).

٢. إن فشل الأنظمة العربية الحاكمة في تحقيق التنمية الشاملة على الصعد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ساهم بوتيرة متصاعدة على خرق منظومتها القيمية ككل من قبل التنظيمات الأصولية ، بشقيها المحتضن والقمعي الذي قدم الأصوليين كضحية للاستبداد والديكتاتورية السائدة متناسين أن التنمية الشاملة من منظور قرآني لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الانفتاح على المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والتربوية على بعضها الآخر، بمباركة الدين . وهذا الأمر يحتاج منا إلى نشر الوعي الاسلامي للشرط الانساني .(٢٩) .

٣. نجحت التيارات الأصولية في إيجاد متنفسا لها يعبر عن أيديولوجياتها التكفيرية ، وبالتالي بروزها على الساحة السياسية من خلال معاناة الشارع الاسلامي من ضيق سياسات الانظمة الحاكمة ، فقامت باحتضان ذلك الضيق وشجعت عليه بارتكابها العنف والتقتيل.

٤. إن فشل الأحزاب القومية العربية والشيوعية في تحقيق الآمال التي وعدت بها شعوبها أدى إلى واقع اجتماعي سياسي تعبوي مختلف ، سرعان ما تحولت الجماهير العربية والإسلامية عن أحزابها ، وانظمت إلى الأحزاب ذات التصورات الراديكالية ، ممثلة بالأحزاب ذات التوجه الديني وحتى المذهبي.(٣٠).

٥ . إن فشل مشاريع السلام المقترحة أمريكيا أدى بشكل أو بآخر إلى تقوية مواقف الأحزاب الدينية التي توصف عادة بالأصولية أو الراديكالية . مما عقد الأوضاع القائمة، وقلل من فرص وجود محاولات جديدة قابلة للتطبيق.

المطلب الثاني: الفكر الأصولي و العنف الديني المقدس.

حظيت ظاهرة العنف الديني التي تبنتها الحركات الأصولية المتشددة بمساحات واسعة من الاهتمام والتأثير، لما خلفته من آثار مدمرة على المستويين الفكري والعملي. فقد جسدت تلك الحركات على أرض الواقع مشاهد مرعبة للتطاحن الطائفي السياسي المعاصر. فتوسعت دائرة الإرهاب إلى بقاع شتى من أرض المعمورة ، لتسلب أرواحا بريئة

في دورة دموية هوجاء. وفي خضم هذا الوضع المرعب طرحت إشكاليات عدة دول جدلية الدين والعنف. فالأصوليون المتشددون اتخذوا من العنف المقدس أيدولوجية تقودهم في جميع تصرفاتهم الفعلية والقولية . ولكن هل توظيفهم للمقس الديني يشفع لهم تطرفهم الراديكالي المعاصر؟ وهل يمكن للعنف أن يشكل مطلبا للدين؟ وهل يمكن للدين أن يؤسس على العنف؟ أم أن الدين في طبيعته عنيفا بحيث يمسي أصل الدين؟

إن المعطيات العقائدية والتاريخية تؤشر إلى أن الديانات الابراهيمية مجتمعة تدعو إلى المحبة والسلام والتسامح ،وتنبذ العنف والتطرف، وتدعو دوما إلى الوسطية والاعتدال، مدعما بالحوار السلمي الهادف إلى تقريب وجهات النظر واحترام الرأي الآخر. ولكن في عصرنا الحاضر تعقدت المشاهد والوقائع، وتداخلت الأفكار والنظريات من هنا وهناك، لتطرح أفكارا ونظريات عممت على سلوكيات متباينة في القبول والرفض، فأنتجت تطرفامفرطا في التعامل مع الآخر المخالف وكأنه يعود بنا إلى حقب تاريخية ماضية سادت فيها سيادة المقصلة والحرق لبني البشر. وهنا يثار تساؤلا مفاده لماذا يكون العنف دينيا؟ وما هي الكيفيات التي تفرض نفسها في عملية تأسيس العنف وانتشاره في العالم المعاصر؟(٣١).

وللإجابة لابد لنا من البحث عن الأسباب التي ساهمت في انتشار العنف وتوسعه، ومنها أحداث افغانستان طالبان وقبلها احتلال الروس لها وظهور القاعدة، وتفجيرات الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة، التي تعد مفصلا تاريخيا من مفاصل العنف السياسي والعنف الديني المضاد. فعكف الباحثون وعلماء الاجتماع وتحديدا على دراسة ظاهرة العنف بالتحليل والتنظير ، إلا أنهم أجمعوا بالرفض بأن العنف كامن في جوهر الدين. لكن شريحة واسعة من السياسيين وعموما من الناس في الشرق والغرب رأوا أن ممارسة العنف باسم الدين يترك انطباعات سلبية في النفوس، مما انعكس سلبا على نظر غير المسلم للمسلم فتولدت كراهية المسلم في المجتمعات الغربية التي لم تعهد منهم سابقا.(٣٢).

ومن منطلق آخر في مجال بناء وتشكيل الهويات الدينية الأصولية يقوم المتشددون بمعادات المجتمع العلماني والديمقراطي، فبالرغم من أن تلك الجماعات الأصولية ليست متجانسة الهوية والتكوين ، فضلاً عن كونها متنوعة في أهدافها وغاياتها إلا أنها تتفق في أمر واحد وهو إعلان الحرب ضد النزعة الانسانية العلمانية ، فيحكمها فيما بينها التوافق والتحالف على تكوين شبكات قادرة على التأثير السياسي والاجتماعي داخل المجتمعات .

إن الأصولية العلمانية لم تكن مثار اهتمام لولا تحالفها تاريخيا مع الأنظمة العربية المستبدة في مصر عبد الناصر وسوريا والعراق تحت المظلة البعثية . وكذلك طريقة تعاملها مع التدين في عهد بورقيبة تونس، وهو ما يفسر كون التطرف الديني والعلماني جزء من النظر المعرفي الأصولي العربي المعاصر، ومسلكا من مسالك التي تندرج في نسق مؤطر بالرؤية الدينية أو العلمانية باعتبارها تشكل رؤية واحدية للمرجعية ، وواحدية للتقديس .وفي سياق هذا الصراع فالعنف الديني لا يشكل لديهم مجرد ممارسة تأخذ طابعا فوضويا ، بل إنه منطلقا يعبر عن حقيقة وجودهم ، وفضاءات يشكل مناخا تحيا فيه وتستمر لتواصل دورة وجودها واستمرار خصوبتها.(٣٣) ومن أجل تبرير العنف

وتقديسه عمد الأصوليون إلى توظيف الدين بهدف التمييز بين الجماعات العرقية ، كما في الأثنيات الثقافية واللغوية المختلفة.

ويبرر اعتناق بعض الجماعات المثقفة، أو التي تتسم بالطابع الأخلاقي لأفكار التيارات المتشددة إلى تفشي الأمية الدينية التي تعد حيويا وبنيويا في عملية تنامي وتصاعد العنف الاجتماعي فقد ظهر على أحد شاشات التلفزة مهندسا طاجيكيا وقع في أسر القوات العراقية، وعندما سئل عن سبب انتمائه إلى الجماعات الارهابية اجاب أنه قد غرر به في الإيمان بمبادئ الحركة الداعشية التي صورت له ان هدفها إقامة دولة الخلافة الإسلامية على نمط دولة الإسلام التي اقامها رسول الإنسانية محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

إن هذا التضليل هو أمية دينية تغرر بصاحبها وتقوده للهلكة. ومع ذلك فإن الأصوليين المتشددين يستعملون العنف اللفظي والرمزي والنفسي والسياسي ضد المجتمع العلماني فيؤثرون فيه بشدة ، كما هو الحال في مختلف التيارات الأصولية غير الإسلامية كالتيارات الامريكية والغربية . حيث يعتقد بأن هذه الجماعات الأصولية منفتحة على التكوينات الاجتماعية والثقافية للمجتمعات الغربية .(٣٤) . ويدلل على ذلك سلوك المتطرفين الأصوليين الذين يقتلون أسراهم من الجنود الأمريكيين والصحفيين الاجانب بالطريقة التي تقدم فيها القرابين الدموية إلى السماء كما توحي بها الأساطير القديمة ، حيث كانت تقطع الرؤوس كضحايا وهبات في المواسم الدينية تعبدا وتقربا من الآلهة. (٣٥).

إن الإرهاب الفكري الديني المقدس لدى التيارات الأصولية يفسر بأسباب جيوبولوتيكية ، فالعنف بظاهره الحربي الدامي يأخذ طابعا رمزيا بارزا، فالإرهاب ينشر الرعب والخوف ،وخلق فضاء هستيري بين الناس في محاولة تثيرها الجماعات التكفيرية الأصولية التي لا تملك امكانيات كافية من أجل مواصلة وديمومة قتالهم مع مخالفيهم . فهي تلجأ إلى العنف الرمزي الديني من خلال تدمير الرموز الدينية المعادية لها والمخالفة لتوجهاتها الايدولوجية . إذ تم استهداف الكنائس والمساجد والمراكز الرمزية من أي نوع كانت. وهذا الفعل القبيح أثر تأثيرا مباشرا في عمية الضبط الاجتماعي للأفراد والجماعات . ولا يمكننا التقليل من أهميته لا سيما عندما يكون العنف دينيا.إن التحليل النفسي للعنف المقدس ذو أبعاد سيكولوجية تدفع بالأصوليين المتطرفين إلى النزوع إلى التعصب الشديد والعدوانية المدمرة ، وكذلك إلى النرجسية والتمحور حول الذات والارتباط السادي بالعالم . فالحاضر ليس منفصلا عن الماضي . وأن مرجعية التيارات السياسية الأصوليه الاسلامية المتشددة هي مرجعيات تنتمي إلى التراث الاسلامي الذي ينبغي مراجعته جذريا بما يتلاءم مع الحاضر المعاصر ومشكلات الانسان وهمومه الراهنة. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال التحرر من هيمنة الذين يشيعون بين الناس أنهم أوصياء على الحقيقة المطلقة، فيحتكرون لأنفسهم حق التحدث باسم المقدس والإله. وهؤلاء يبنون بنية ثقافية وعقلية متماسكة ومعقدة من العلاقات في مختلف المؤسسات التي أصبحت جزءا من ثقافته، ومكونا اساسيا من مقومات وجوده. (٣٦).

المبحث الثاني :سمات العوامل الذاتية والموضوعية لأيدولوجيةتطرف الفكر الأصولي.

المطلب الأول: سمات العوامل الذاتية والموضوعية لتطرف الفكر الأصولي.

ساهمت عوامل عدة في بروز سمات اتشحت بها ظاهرة تطرف الحركات الأصولية، منها؛ ما تولدت في حضن ممارسات ومشاعر ونهج ، خلقت أزمات وتدني مستويات مؤثرة في الشارع السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي.وعوامل أخرى نتجت بفعل عوامل خارجية مؤثرة في الداخل المحلي. ويمكن تقسيمها إلى عوامل ذاتية وعوامل موضوعية.

أولا: العوامل الذاتية.

١. تزايـــــــــــــد مشاعر الخوف واليأس عند عموم الناس من الوضع الراهن المتردي على المستويات المختلفة، مما حفز الشعور بضرورة مجيئ مخلص ينتشل الناس مما هم فيه من ضيق وعناء. وهنا برزت الأصولية الدينية كمنقذ ، بما أتته من شعارات ذات صبغة اسلامية تطلعية ، نحو تحقيق العدالة والأمن والسلام.

٢. ساهمت الأنظمة السياسية العربية الفاسدة تجاه شعوبها في اتساع النقمة عليها ،مما ساهم في ولوج الفكر الأصولي المتطرف الذي رأى في التضييق عليه وعلى كوادره سببا في تبني العداء للمؤسسة السياسية الحاكمة ، كما هو الحال في مصر إبان حكم جمال عبد الناصر. ناهيك عما آلت إليه الأوضاع الاقتصادية من تردي في أغلب البلدان العربية، رغم امتلاك بعضٍ منهم للثروات الطبيعية.ولكن ظلم السلطة الحاكمة واستشراء الفساد المالي والاداري وقف حائلا في طريق الاصلاح والتنمية المستدامة.

٣. تفشي الجهل والأمية الثقافية والمعرفية في مؤسساتنا التربوية، التي اعتمدت سياسة تعليمية تلقينية تسلطية لا تحاكي العقل المعرفي القادر على استنباط مكامن التغيير الشمولي ،التي بإمكانها ايجاد الأرض الخصبة للتطبيق، كما ان استعمالها لمناهج تربوية بالية ساعد في تنامي الجمود الفكري. وتضاءلت فرص النهوض بالواقع التعليمي والتربوي . مما ساهم في تقبل الفكر المضاد الذي ضرب على الوتر الحساس في التغيير وتحقيق حلم الجماهير في العدالة والرفاهية .

٤. غياب المشروع القومي النهضوي او اي هدف عام تجد فيه النخب أملا في مستقبل أفضل للناس.

٥. وجود قوى أو جماعات اقتصادية محلية تدعم التوجهات الأصولية المتطرفة، وتعمل على تمويلها. والغالبية العظمى من تلك القوى عربية الدعم .(٣٧)

ثانيا: العوامل الموضوعية.

١. تقع العوامل الموضوعية خارج سيطرة الدول المبتلات بالإرهاب . مثل انهيار النظام الشيوعي وما رافقه من أحداث أدت إلى إعادة التوازن الدولي للقوى النافذة للعالم الجديد.

٢. أثرت مجريات الأحداث العالمية التي اتسم بعضٌ منها بالعنف مثل أحداث تفجير الابراج الامريكية في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠١١م في عولمة الارهاب،حيث افرز الحادث قدرة الحركات الاصولية المتشددة على تنفيذ ضرباتها وقت ما شاءوا وفي اي مكان أرادوا. (٣٨).

٣. سقوط النظام البعثي في العراق وما صاحبه من دخول القوات الأجنبية للعراق شكل بروز مرحلة جديدة من التطرف ، ساهمت في اتساعه فيما بعد.

٤. إن خوف بعض الأنظمة السياسية من سقوطها دفعها إلى دعم التيارات الأصولية المتطرفة، فأصبحت حاضنة لها. وإن كانت تلك الأنظمة في الأساس استبدادية في حكمها لشعوبها العربية.

المطلب الثاني :أيدولوجية الأصولية الجهادية ومراحل تطورها.

إن أهم ما يملكه الفكر الأصولي هو النص الذي يعد رأس مال الأصولي في توجهاته الجهادية . فالالتزام بالنص يعني التقيد به حرفيا . أما تأويله ليلائم الواقع يعد معصية لاتغتفر. والنص في معتقدهم قد تم تأويله في زمن صدوره ومكانه ، فلا يعاد انتاجه مرة أخرى لعدم مطابقته للزمانية والمكانية ،التي أفرزت معطيات وقدرات ذلك المكان والزمان. وانتقل هذا الالتزام والرأي المتزمت إلى كتابات منظريهم، حيث تعد كتابات سيد قطب . أحد قادة الإخوان المسلمين . دستورا اتخذته السلفية الجهادية منهجا حركيا ، وآلية للتغيير بناء على مفهومين تأسيسيين هما؛ الجاهلية والحاكمية، اللذان تقومان على مبدأ الاعتداء على سلطان الله في الأرض ، من خلال الحاكمية التي تعد من أهم خصائص الألوهية ، التي تمنحهم الحق في رسم منظومة القيم والأنظمة والشرائع ، بمعزل عما خططه الله لهم من منهج حياتي شمولي.(٣٨).لقد استمد سيد قطب نزعة الشرعية عن الأنظمة الحاكمة عالميا ،في رؤيته للحاكمية وصولا إلى إحداث تغيير في تلك الأنظمة والانقلاب عليها. فينظر إلى فريضة الجهاد أنها شرعت في الاسلام للدفاع عنه، والقضاء على الظالمين ،والعمل على إخراج الناس من العبودية إلى رب العباد لا بقهرهم على اعتناق عقيدته ولكن بالتخلية بينهم وبين تلـــــــك العقيدة ،بعد تحطيم الأنظمة السياسية وقهرها ،حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها .(٤٠).

ويرى سيد قطب أن هدف السلام لم يكن مجرد تحقيق القومية العربية والعدالة الاجتماعية ولا سيادة الأخلاق، ولكن الهدف هو إقامة مجتمع الاسلام الذي تطبق فيه احكام القرآن تطبيقا حرفيا ، وأولها أن يكون الحكم نفسه لله وليس لأي بشر أو جماعة من البشر. فالإنسان الحاكم ينازع الله في سلطانه وسلطته. حتى الشعب لا يرى فيه سيد قطب الأهلية الكاملة لحكم نفسه ، لأن الله هو الذي خلق الشعوب، وهو الذي يحكمها بنفسه.(٤١) وسميت سلفية سيد قطب بالسلفية الحركية لأنه يعد المحرك الاساسي لها ، كما سميت بالحركة السرورية نسبة إلى محمد سرور بن نايف زين العابدين الذي خرج على الاخوان المسلمين السوريين. فدشن تيارا سلفيا حركيا انتشر في المشرق العربي .(٤٢).

وبرزت مرحلة ثانية من تطور الايدولوجية السلفية الجهادية على يد الدكتور صالح سرية، الذي أنشأ جماعة جهادية سميت باسم(الكلية الفنية العسكرية). وقد بث فكره أيديولوجيا في (رسالة الإيمان) التي عدت فيما بعد المرجع الاول

للحركات الجهادية اللاحقة. وقد قام سرية بتلخيص أهم الأفكار المتعلقة بالجانب السياسي ، فذكر أن الجهاد هو الطريق لإقامة الدولة الاسلامية، والحكم بتكفير الحكام،وجاهلية المجتمع واعتباره دار حرب. وأن ينفذ كل أوامر الدولة الكافرة ضد الاسلام ، بعد نفي ايمان عنه، الذي لا يقترن العمل فيه القول بالعمل. مشبها عملية ربط الدين بالعبادة بالنمط الكنسي، الذي يفصل بين التشريع والمعاملات . وقد وسع سرية دائرة التكفير لتشمل الأفراد الموالون للحكومات والأنظمة الظالمة.(٤٣).

وأثارت كتابات المهندس محمد عبد السلام فرج في ثمانينات القرن الماضي زخماً فكرياً ومعنوياً اسهم في صعود نجم الجماعات الجهادية عبر التنظير ورسم الايدولوجيات الجهادية السلفية. وأهم كتبه(الفريضة الغائبة) في إشارة منه الى الجهاد. وقد سار المهندس على نهج سابقيه سيد قطب وسرية في تكفير الحكومات العالمية مستندا في ذلك على مسألة التشريع الذي تحكم به مجموعة علمانية تعد الشعب هو مصدر السيادة، فيمنح بدوره المجالس النيابية صفة تشريعية . وهذا بدوره يختزل دور الشريعة الاسلامية ويجعلها مشاركا ضعيفا في مصادر التشريع إلى جانب التشريعات ذات الجذور الرأسمالية والاشتراكية. مما يجعل الدولة كافرة عملا بقوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون). (٤٤)

واستمد المهندس من الآية معيارين اثنين هما ؛تحديد العدو القريب والعدو البعيد ، ومن ثم القتال والجهاد باعتباره فرض عين على المسلمين جميعهم. (٤٥)

أما المرحلة الثالثة من مراحل تطور الايدولوجية الأصولية الجهادية فبدأت مع بروز المشكلة الافغانية، وإعلان الجهاد من قبل زعماء السلفية أمثال الشيخ عبد الله عزام وابن لادن والظواهري. فالشيخ عزام شرع منذ وصوله لأفغانستان سنة ١٩٨٤م إلى توسيع المفاهيم الخطابية السلفية الجهادية التي نادى بها سابقيه سيد قطي وسرية والمهندس .كالحاكمية والجاهلية والجهاد.

نتائج البحث.

توصلت الدراسة إلى نتائج عدة ، من خلال ما طرحته من أفكار ورؤى. حول الحركات الأصولية المتشددة، وأيديولوجيتها التكفيرية ، وعنفها المفرط بحق من يخالفها في أفعالها وأقوالها . وأهم تلك النتائج هي:

١. إن العنف الأصولي الديني يرسم لنا واقعا مخيفا ، تمتزج فيه الأيدولوجية المتعصبة مع ألوان المقدس، الذي يتعانق مع الأصل التاريخي والعقدي

والاسطوري الرمزي . بغية تغيير الواقع المتردي على الصعد المختلفة. فوجب على القائمين على الأمن القومي العربي والإسلامي الوقوف بوجه تلك التيارات الهدامة .

٢. يتطلب من المجتمع الدولي كافة وليس المحيط الإقليمي العربي فقط أن يتحد في مواجهة قوى الظلام وذلك بوضع الخطط الكفيلة التي من شأنها أن توقف تمدد المجاميع الإرهابية ، وتقضي عليه بشكل نهائي.

٣. يتوجب على المؤسسة الدينية الرسمية العربية والإقليمية والدولية ، العمل على بيان زيف ما تؤمن به التيارات الأصولية التكفيريـــة ، من أفكار مضللة تنشرها باسم الدين . وتوضيحها للرأي العام كي ينتبه ويسترشد بها المغرر بهم ، لأن العنف المستشري هو عنف ديني معلن وغير معلن.

٤. تؤدي وسائل الإعلام المختلفة حراكا كبيرا في تدوير العنف ، وتساهم في تعزيز حضوره .وتعمل على عولمة العنف أو عنف العولمة. كظاهرة انتشرت في محيطنا .فتعمد إلى توظيف معامل العولمة كي تنشر ثقافة الرعب بين الناس. مما استلزم معه وضـــــــــــــع التشريعات القانونية التي تلزم تلك المؤسسات الإعلامية المحلية على أقل تقدير، والعربية عموما بعدم الترويج أو النشر أو المساهمة في تقديم المساعدة للجماعات الأصولية الإرهابية.ومن يخالف ذلك يحاسب بشدة، ويقدم للمحاكم المختصة لينال العقاب.

٥. إن العنف الذي تبثه الحركات الأصولية الإسلامية ، يهدف إلى الدفاع عن الهوية الدينية بطابعها السلفي ، الذي يحبذ إسقاط الماضي بكل تفاصيله على الحاضر المتغير بالمؤثرات المختلفة . مما انعكس سلبا على السلوك المجتمعي فطبع بالتشدد الذي صيغ بصورة متعددة من العنف السيكولوجي . وهذا الأمر يتطلب المجابهة على صعد عدة منها تنقيح وتشذيب التاريخ من الوقائع والروايات التي تسهم في بث الفكر المتطرف ، وتدعو إلى الفرقة والتخلف والجمود الفكري، والعمل على تأكيد روح التسامح والمحبة والألفة بين المسلمين.

٦. إن العقل الأصولي عقل دوجمائي يؤمن بامتلاك الحقيقة التي تعلو فوق كل صور النقد والشك. كما يقول الدكتور حسن حماد في كتابه ذهنية التكفير(إن أزمة الارهاب الأصولي ليست في امتلاكه فكرة مطلقة فحسب ، بل تكمن في أنه يريد فرض مسلمات على الآخرين، إنه لا يطيق أن يحيا في عالم مختلف، ولا يتحمل أن يوجد في هذا العالم حقائق أخرى غير حقيقته)٤٦

الهوامش والمصادر حسب أسبقية ورودها في البحث.

(١) الأسلوب دراسة لغوية إحصائية. د. سعد مصلوح . عالم الكتب ، ط٣ ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢، ص١٢.
(٢) لسان العرب ، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، دارصادر ، ط ٤ ،بيروت ٢٠٠٥م ـ ٢٢٤/٣، معجم مقاييس اللغة ، ابي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، /٤٨٦.
(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ، ابن قيم الجوزية ،دار الفجر للتراث ،ط١، القاهرة ـ ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م ، ٧٢/٢.وانظر:مقاربات جهادية. د.أحمد حسين المصباح للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م ، بغداد، ص٢٣ـ ٢٤
(٤) سورة النساء/٩٥.
(٥) سورة الفرقان/٥٢.
(٦) لسان العرب/٦٩/٤.
(٧) سورة محمد/٤.
(٨) تفسير القرآن العظيم ، الحافظ عماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) دار ومكتبة الهلال ودار البحار ، ط١، بيروت ١٥٨/٤. وانظر مقاربات جهادية / ٢٩
(٩) سورة الأنفال / ٥٧.
(١٠) تفسير القرآن العظيم ٢٩٦/٢.
(١١) معجم مقاييس اللغة ٥٦/٥. لسان العرب ٢٢/١٢.
(١٢) سورة الأنفال/٦٥.
(١٣) الميزان ي تفسير القرآن ، محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة المجتبى ، ط١، ايران ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م ، ١٢٤/٩، تفسير القرآن العظيم ٢٩٩/٢.
(١٤) سورة آل عمران /١٤٦.
(١٥) تفسير القرآن العظيم ٣٧٩/١. وانظر مقاربات جهادية/٣٢
(١٦) سورة التوبة/١١١.
(١٧) مجمع البيان في تفسير القرآن ، الشيخ أبوعلي الفضل الطبرسي مؤسسة٢التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٣ ، بيروت ،١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م ٦٦٤/٢.
(١٨) معجم مقاييس اللغة ٤٢٣/٤، لسان العرب ٤٦/١١.
(١٩) سورة آل عمران /١٥٦.
(٢٠) تفسير القرآن العظيم ٣٨٧/١
(٢١) مجمع البيان في تفسير القرآن ٦٦٤/٢. وانظر مقاربات جهادية /٣٩
(٢٢)(منشأ الحركات الأصولية وتداعياتها. الأستاذ الدكتورخليل حسين، أستاذ القانون الدولي والدبلوماسي في جامعة بيروت العربية. مقال منشورعلى الموقع الإلكتروني للدكتورخليل حسين تاريخ٢٩ آذار ـ١نيسان٢٠١١م/ص١) .
(٢٣)(جذور الإرهاب الإسلامي ، فيليب لوندو أدريان باست ، مقال منشور في صحيفة انترناشيونال هيرالد تربيون بتاريخ ١٣
٢٨يوليو٢٠٠٥والمنشورعلى الموقع الإلكتروني Islamdaily.org
(٢٤)(التطرف الديني ومظاهره الفكرية والسلوكية. محمد ياسر الخواجه، نشر مؤسسة مؤمنون بلا حدود. الرباط، المملكة المغربية،د.ت /٣).
(٢٥) (المصدرالسابق/٨).
(٢٦)(رؤى ثقافية. نشرمركزابن إدريس الحلي للتنمية الفقهية والثقافية ،دارالسلام ، بيروت، العدد الأول ـآذار٢٠١٠م.ص٣٥).
(٢٧)(التطرف الديني ومظاهره الفكرية والسلوكية/٢٩) .
(٢٨) تنظيم الدولة الإسلامية، الأزمة السنية والصراع على الجهادية العالمية. حسن أبوهنية. د. محمدأبورمان/٢٢٩.
(٢٩)(اجتماعيات الدين والتدين دراسات في النظرية الاجتماعية الاسلامية . حسين أحمد شحادة مركزالحضارة لتنمية الفكرالاسلامي . ط١،بيروت ، ٢٠١٠م. ص ٣٠٣. وانظر: وجها لوجه مع الفكرالأصولي. خالدغزال/ ٧٤)
(٣٠) المصدرالسابق
(٣١) (ظ :المجتمع والعنف، بيرفيو، ترجمة الياس زحلاوي، فصل العنف والوضع الانساني ، المؤسسة الجامعية للنشر،بيروت،١٩٨٥)
(٣٢) (ظ: عقلنة العنف قراءة فلسفية في البعد الاخلاقي. علي أسعد وطفة، مجلة بناة الاجيال ، العددان ٧٠ـ ٧١ شباط ٢٠٠٩م ،ص٣٥ومابعدها).
(٣٣) (الهويات الأصولية في زمن العولمة. علي أسعد وطفة. مجلة المعرفة، العدد ٥٥٧/شباط ٢٠١٠م/ ص٤٠ـ ٤١).
(٣٤) (المصدرالسابق).

(٣٥) ظ: العبادات في الأديان السماوية، عبدالرزاق رحيم صلال ، دار الأوائل / ط١.عمان،الأردن/٢٠٠١/ص١٣١)وانظراليهودية ، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية. ط١٢/١٩٩٧م/ ص٢١٥- ٢١٦).
(٠٣٦)(ذهنيةالتكفير. د. حسن حماد . العربية للنشروالتوزيع، بيروت ، ٢٠١٤م/ص٦٦).
(٣٧)(التطرف الديني ومظاهره الفكريةوالسلوكية. محمدياسرالخواجة /ص١٦-٢٠.)
(٣٨)(ذهنيةالتكفير/ ٤٥)
(٣٩) سيدقطب، معالم في الطريق، ص٢٢، دارالشروق، ط٨، وانظرالتطرف الديني ومظاهره الفكريةوالأصولية/٩). ١٩
(٤٠) الحركات الاسلامية في الوطن العربي، د. محمدأبورمان، مركزدراسات الوحدةالعربية، ٢٠١٣م ،مبحث السلفية المشرق العربي، المنشورعلى موقعJordan.net).
(٤١)(التطرف الديني ومظاهره الفكرية والسلوكية/ ١٠)
(٤٢)(المصدرالسابق).
(٤٣)(صالح سرية، رسالة الايمان ، منشورات جامعةالقاهرة، ١٩٧٧،ص٢٨، وانظر: صالح سرية في الويكيبيديا.
Ar.m.wikipedia.org
(٤٤) سورة المائدة/٤٤
(٤٥)(الفريضة الغائبة، محمدعبدالسلام فرح، المنشورةعلى الرابط (http// alkalema.net
(٤٦) ذهنية التكفير/٦٩